

إخوتي الأعزاء،

أيها المؤمنون الكرام،

تعطينا هذه الآية الكريمة التي تُخاطب جميع أهل الإيمان مِقياساً إلهياً للحياة. أولاً نتعلم من الآية أن الحياة يقتضي عدم إزعاج من حولنا. إضافة إلى ذلك يتبعني لئلا أنا نصير على إيداء غيرنا إيانا مسامحة. فاسمعوا كيف وصف الصحابي الجليل أبو سعيد الخدري (رضي الله عنه) النبي ﷺ. يقول: «كان النبي ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها. فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه». وقال أبو هريرة (رضي الله عنه): «ما عَابَ رَسُولُ اللَّهِ طَعَاماً قَطْ». كان إذا اشتهى شيئاً أكله، وإن كرهه تركه. «ما أَشَدَ حَيَاءَ النَّبِيِّ! لَوْلَمْ تَنْزِلْ هَذِهِ الْآيَةَ لَمَا عَلِمْتُ ضُيُوفَهُ الَّذِينَ أَطَالُوا مَجْلِسَهُمْ فِي بَيْتِهِ خَطَّاهُمْ أَبْدًا».

إخوتي الفضلاء،

نفهم من الآية التي تكونها والأحاديث التي رويناها أن الحياة من أهم وصف أهل الإيمان. علينا أن نحاسب أنفسنا في الحياة دائمًا. ولنسأل كل واحد مثنا نفسه: «هل أعمل من حولي من الأصدقاء وأفراد العائلة بالحياة؟ أستحب من ربّي أم أنا من المعتدين في حقه؟

إخوتي الكرام،

عرف الجنيد البغدادي (رحمه الله) الحياة بأنه: «روية الآلاء - أي: النعم - وروية التقصير، فينزل دينهم حالة تسمى حياء»⁵ فأعطانا بذلك خريطة في أيدينا. فنفهم من هذه الكلمة الحكمة أنه كفى بالمقارنة بين نعم الله العظيمة علينا وبين عباداتنا القاصرة التي نلقاها به للحصول إلى خصلة الحياة. وهذا المستوى من الإدراك يذكرنا بعجزنا أمام رب العالمين وأنه لا بد من معاملة عباده على أحسن

الحياة.

فجعلنا الله تعالى من المقتدين بهدي رسوله ﷺ، وأدخلنا في زمرة

أحباءِ الَّذِينَ يَسْتَحِيُونَ مِنْهُ. آمين



⁵ صحيح البخاري، رقم الحديث (٦١٠٢)، صحيح مسلم، رقم الحديث (٢٣٢٠)

⁶ صحيح مسلم، رقم الحديث (٢٠٦٤)

⁷ التوسي: رياض الصالحين، ٨٤، الحياة، ص ٢٣٠

لا شك أن رضا الله علينا كمؤمنين. وإن رضاه عز وجل يتعلق بمستوى إيماننا وعبادتنا وأخلاقنا. وبين هذه العوامل ربط وثيق. فكما يدل الخشوع في عباداتنا إلى عمق إيماننا فكذلك أخلاقنا مرآة إيماننا. فلا شك ولا ريب أن الأخلاق قسم من الإيمان.

وقد صرّح وأكد الحبيب المصطفى ﷺ بـأن الحياة من الإيمان.¹ والحياة خصلة تمنع صاحبها من ارتباك فعل، خيراً كانت أو شرّاً. وأصل كلمة الحياة من الحياة. وعلى حسب حياة القلب يكون فيه قوة خلق الحياة. فاستنبط منه علماءنا أن قلة الحياة من موت القلب والروح.² وحضرنا النبي ﷺ في ذلك بقوله: «إذا لم تستحي فاصنعوا ما شئت».³

أيها المسلمين المحترمون،

يذكر لنا ربنا تعالى واقعة من حياة النبي تأكيداً لأهمية الحياة وتعلينا بعض الأحكام المتعلقة به. وتلك أن رسول الله ﷺ أ ولم في بيته بعدما تروجه زينب أم المؤمنين (رضي الله عنها). فكان بعض ضيوفه يستغرقون في حديث بينهم حتى طال المجلس وهو غالبون عن ذلك. إنزعج النبي ﷺ لأجل ذلك ولكنه سكت لشدة حيائه لأنه لم يرده أن يكسر قلوب ضيوفه. ولكنه حاول أن يشير إلى ما في قلبه بتردد يميّنا وشمالاً. وعندما خرج ضيوفه الثلاثة الأخيرة بعد مجلسهم الطويل، قصد رسول الله ﷺ مصحّعه فأوحى إليه ربُّ هذه الآية: «يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إني ولكن إذا دعّيت فادخلوا فإذا طعتم فانتشروا ولا مُستأنسين لحديث إن ذلك كان يؤذي النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق».⁴

¹ انظر صحيح البخاري، رقم الحديث (٢٤).

² ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين، ص ٤٩١.

³ صحيح البخاري، رقم الحديث (٦١٢٠).

⁴ سورة الأحزاب: ٥٣.